ولادة الأرحام إشاعة رائجة

أين أنا؟ من أكون؟ كان هذا السؤال الوحيد لابن عقلي، لم أكن مجنونة لأعيد السؤال مليون مرة، ولم أكن فاقدة الذاكرة حتى أسأل، لكن هذا السؤال عاش معي ليلالٍ و شهور، أريد أن أضع نقطة لدهاليز الشك وعتمة القدر.

أدري أن اسمي "أماني مراد كامل" ذات العشرين همًا، لكن هل أنا من عائلة "كامل" حقًا؟ هذا السؤال بات يرهقني، ينخر ويفتك بالجوزة القاطنة في رأسي، بينما عقلي وقلبي يقيمان دروسًا حول شكوكي، قطعت أمي أصواتنا الصاخبة اللامسموعة وفتحت باب الغرفة منادية للعشاء، جلستُ وسط عائلة -حبي لها لا يحد بحدود- بجوار صغيرتي لبنى وأمامنا أخي ياسر وأختي البِكْر ياسمين، وفي صدر الطاولة الرائعين "ماما" و "بابا"، مكثتُ معهم، وكلي يقين أنني جزءٌ يتجزأ منهم، يا إلهي! حتى في عيونهم الخضراء و شعرهم الأشقر أنا أختلف عنهم، كل الدلائل كانت واضحة تمهد لموضوع واحد؛ كوني غريبة عنهم .

بدأتُ أعيش داخل دوامة شكوكي منذ أذار العام الماضي بعدما سمعت عمتي تقول لأمي: "إلى متى ستخفين الحقيقة؟ متى تعلم أنها ليستِ ابنتكِ؟!"، البنت المقصودة هي أنا، طبعًا ليست "ياسمين" ذات الذقن الكبير كأبي أو "لبنى" ذات الشعر الذهبي كأمي، هي بالتأكيد أنا، لكن الشيء الغريب؛ أن لقبي نفس لقبهم، آه.. غبية ألم أدرس شيئًا اسمه

التبنـــي!، بعـدها دفعتنـــي تخمينـــاتي إلـــى تحليـــل DNA، فتَبُتـــت كـــل الإرهاصـات، تأكدت الآن أنني لست منهم، أمرٌ محزنٌ، أليس كذلك؟ شعور جَد مُحزن أن تعيش عمرًا وسط أشخاص لا تعرفهم، وغريب وسط عائلتك.. إلى أن جاء ذاك اليوم؛ حين قررتُ رمي كل الجمرات التي أَحرقت قلبي قبل لساني و أقطع حبال التوتر التي دامت لشهور، بينما كانت كل العائلة مجتمعة تشاهد التلفاز؛ دخلت الغرفة كالجوكر؛ ليفسد عليهم المشاهدة بخبري، قبَّلتُ والدايا، ضممتُ سكَّرَتي في حُضني وتبادلت الابتسامات مع عضدي اليمين واليسار ، ورددت بصوتٍ واحد: "من عائلتي؟"، ضحك إخوتي وصُدم والدايَّ، فهما الوحيدان اللذان يتقنان حل تلك المعادلة، بعد أشواطٍ من المراوغة؛ قررا أن يعترفا بأنني إبنة جارة لهما، كانت تسكن حيَّهما منذ عشرين عامًا، حيث ارتكبت خطأً ضد شرفها، فدفعتُ أنا ثمن غلطتها، فتكفلا هما بي، بعدها هربت للقاهرة خوفًا من الفضيحة، حل الخبر كنيزكٍ حارق.. ألهب كل أمالي، كنت أعلم منذ البداية أنني جئت لدنيا لعينة بسبب لعين، لكن للحظة خجلت من عار أمي، أنبتها لأني أدفع فاتورة غبائها، خجلت من جبن أبي ووقاحته، خجلت من كوني ابنة حرام، وسط عائلة شريفة لم تمنحني سوى كل ماهو جميل.

انعزلت لأيام في غرفتي، توقفت سيرورة حياتي لأيام، أما بالنسبة لهم كأن شيئًا لم يحدث، لا تزال لبنى تنام في حضني، وياسمين تصرعني بحكايات خطيبها عمر، وياسر يحضر لي الأيس كريم بنكهتي المفضلة، ولا أزال مدللة ماما و بابا، لكن أنا لم أعد أشعر أنني وسط عشيرتي، صرت أشعر كأنني البطة السوداء الغريبة عن الأخرين في كارتون توم و جيري، رغم أن أمي اقترفت ذنبًا وتركتني، إلا أنني أحن لها.. يا تُرى

كيف صوتها! شعرها! هل تشبهني؟ ماذا فعلت بها الأيام؟ عن نفسي غفرت لها؟ كانت مراهقة والمجتمع لم يرحمها.. حقًا أريد معرفتها.

"بابا أحمد" و"ماما راضية" كانا دائمًا معي، حتى في قرار تركهما، لكنني سأبحث عن نصفي الذي تركني، ولا أنسى كلي الذي رعاني، تكفيني معرفتها و زيارتها مرات فقط، بعد انتهاء السنة الجامعية؛ انتقلت أنا و درر حياتي إلى القاهرة، بحثنا عنها في كل مكان، سُهل الأمر قليلًا، خاصةً ونحن نعرف معلوماتها الشخصية، وجدتُها تسكن في منزل جد راقي، رأيتها وهي تخرج من بيتها برفقة بنتين جميلتين، احتضنتهما وركبوا السيارة.. حيث كان ينتظرهم رجلٌ أربعيني؛ يبدو عليه علامات الثراء، وأصوات ضحكاتهم لا تزال تسكن عقلي، تمنيت أن أكون معهم، وأصير الجزء الذي لا يتجزأ منهم، اشتقت لأمي التي سهرت شهورًا أرسم شكلها، أتخيلها بعيونٍ ورديةٍ عسليةٍ أم بنية!، اشتقت لماريا وأحلام التي بالكاد أتذكر أسماءهم حين نادتهم أمي قبل أن تغلق الباب

بعد أيام من التجسس، واستراق النظرات، والحنين المخفي؛ ذهبنا ثلاثتنا لمكان الحقيقة، طرقنا الباب.. ففتحت لنا الخادمة، بينما نحن ننتظر؛ دخلت أمي.. فبدأ قلبي بالخفقان، كلماتي تطايرت من فمي، انتابتني رعشة غريبة، فوجدتُّ نفسي مقبلة نحوها بعيونٍ دامعةٍ، وكلماتٍ متقطعةٍ؛ لأحتضنها.. أمي التي أتوق لعناقٍ صامتٍ معها.. أمي التي أقمت ليالٍ بيضاء أرسم رموشها، ذقنها، شعرها، بل حتى ضحكتها، أمي التي غفرتُ لها.. سامحتها لأنها رمتني، ورغم عيشتها الهنية.. لم تبحث عني ، لكن أحبها.. لأنها ببساطة أمي، لكن ماذا فعلت هي؟ صدتني.. وقالت باستهزاءٍ: من أنتِ؟، قاطعها أبي و قال نحن

عائلة مراد جئنا لنذكركِ بماضيكِ المنسي، لوهلة ظننت أنها تذكرتني، وأردت أن تضمني إليها، لكن بمجرد ما دلف للقاعة زوجها وبناتها تجاهلتنا.. قالت:"عذرًا.. لقد أخطأتم بالعنوان.. أسفة، لا أعرف السيدة المقصودة، رُبَّما اختلط الأمر عليكم"، فردَّ زوجُها بمنتهى اللطافة: "مين دول يا منال" فأجابته: " معرفش يا قصي.. تقريبًا غلطانين في العنوان"، واحتضنت بناتها، و فتحت الباب لنا وعينها تقول: "تذكرتكِ لكن غادريني.. أنتِ غلطة لا أريد تذكرها، أنتِ ماضٍ أسود أمقته، بأي حقٍ تعودين؟ بأي حق تبعثريني؟ ارحلي من حيث جئتِ.

كانت أخر ليلة من ليالي السهاد المتعلقة بتلك المرأة، عرفتُ أنها تخفي كل شيئٍ عن عائلتها.. تيقنتُ أنها سعيدة، تريد أن تنسى ماضيها، آآه ماضيها.. نسته منذ مغادرة بور سعيد، عرفت أنني بالنسبة إليها ذكرى سوداء، من الواجب نسيانها، نمتُ وألاف الأسئلة قد وجدت جوابها.. نمتُ مرتاحة وأنا أعرف أمي، أمي التي تخجل مني، وأبي الذي هاجر لأسبانيا منذ فعلته.

في الصباح التالي؛ استيقظتُ بثوبٍ جديدٍ، وقد رحل عني شعور "الميلانكولي" الذي اجتاحني لأيام.. تيقنتُ أن عائلتي هي أمي التي ضمَّتني قبل أن ترضعني، فالولادة حقًا من القلوب، وليست من الأرحام، وأبي الذي حملني قبل أن أحمل اسمه، وسكرتي التي لا ترضى بالنوم إلا في حضني، وياسمينة قلبي التي لا تثق إلا بي، وياسر عمود الدار وأخو البنات، إنني حقًا أشتاق لهم، بل أشتاق حتى لشجرة الكرز في حديقتنا الدافئة، خرجت ببسمتي المعتادة إلى العظيمين "ماما" و"بابا".. قبلتُهما.. شكرتهما.. واعتذرتُ لهما عن شهور الإرهاق، وقلتُ بصوتٍ

مشبعٍ بالفرح والرضا: "هيا نعود.. فالجميع ينتظرنا.. ليت طريق العودة يقصر، فقداشتقت إخوتي"

بقلم / جيهان حمدتني